مع النبى

أحاط بالنبىِّ عليه السلامُ نُخبةً من كبار الرجال مختلفون فى الأَعمار والأَقدار ؛ مختلفون فى البيئات والأَحساب ، مختلفون فى الأَمزجة والأَخلاق ، مختلفون فى مَلَكات العقول وضروب الكفايات ، مختلفون فى فهم الدين وبواعثِ الإسلام ، فكان اختلافُهم هذا آيةً من أَصدق الآيات على رَحابةِ الأُفق وتعدُّدِ الجوانب فى نفس ذلك الإنسان العظيم ، وكان علمُنا بكل رجل من أُولئك الرجال مزيدًا من العلم بعظَمةِ هاديهم وسيِّدِهم وموجِّهِ كل منهم فى وجهته التى هو أَصلحُ لها وأَقدرُ عليها ، وهم يلتقون أَولَ الأَمرِ وآخره فى ذلك الينبوع الفياض من تلك الفِطرة العُلوية التى فطرها الله لهداية الأُمم وقيادة الرجال ، بل لقيادة القواد الذين يَرُوضون الأُممَ والرجال . . .

وما من عظيمٍ من هؤلاء العظماء إلا كان تقديرُ النبى إياه بقدره الصحيح آيةً على عرفانِه الشامِل بخصائص النفوس ، وسَبْره العميقِ لأَغْوارِ[1] الطبائع والأَفكار ، ولكنَّ تقديره لخالد بن الوليد

(١) سبره لأغوار الطبائع : سبر الجرح : نظر فيه ليعرف ما غوره وعمقه .

على التخصيص كان آيةَ الآياتِ فى هذا الباب ، لأنه عليه السلامُ لم يُكْبِرْهُ إكبار السياسىِّ الذى يستجمعَ القوةَ حوالَيْه ، ويُنْزِل كلَّ زعيم منزلةَ قومِه من الوَفْرةِ والعزةِ والجاه والعتاد ، وإنما أكبره لأنه عرف أقصى مستطاعِه[1] قبل أن يظهر من مستطاعِه كثير ، وسمَّاه « سيف الله » وبينَه وبين الوقائع التى استحق بها ذلك اللقبَ الجليلَ بضعُ سنوات . بل سماه سيفَ الله وهو قافلٌ[2] من معركة يتلقى المسلمون من عادوا منها بالنَّكير والتشهير[3] ، ويَحْثُون[4] فى وجوههم الترابَ ويصيحون بهم أينما وَجَدوهم : يا فُرَّارُ ! يا فرَّارُ ! . . فررتم من سبيل الله !

لم يُكبِر النبى خالداً كما أكبر أبا سفيان تألُّفاً[5] له ورَعْياً لمكانِه فى قومه .

ولكنه أكبرَه للصفةِ التى سيوصفُ بها فى تاريخ الإسلام بعد اهتدائه إليه ببضع سنوات .

أكبره لأنه « سيفٌ من سيوفِ الله » والناسُ لا يَرَوْنَ إلا

---

(١) مستطاعه : قدرته .
(٢) قافل : راجع .
(٣) النكير : الاستنكار والملامة .
(٤) يحثون : حثا التراب فى وجهه : ألقاه .
(٥) تألفاً له : استمالة لقلبه .

الهزيمةَ والارتداد ، ولم يكن النبيُّ مُوَلِّيه القيادةَ فى المعركة التى ارتد منها[1] بجيش المسلمين ، فيقول قائلٌ إنه ينصر قائدًا هو المسئولُ عن اختياره ، وهو مِنْ ثَمَّ المسئولُ عن ارتدادِه أو فراره . ولكنه ولَّى آخرين وترك اختيارَه بعدهم لمشيئة إخوانِه فى الجيش فاختاروه بعد ذلك مُجمِعين

كثير من رؤساء الأُمم يعرفون موضع الإكليل[2] من رءوس القادةِ وهم منتصرون ظافرون ، ولكنه موضعٌ يَخفى جِدَّ الخفاء على أنظار هؤلاء الكثيرين إذا لم يدلَّهم عليه ضياءُ النصرِ والظفر ، ويبقى للعين المُلهمةِ وحدَها أن تراه فى ظلام المحنة والبلاء .

وقد صحب خالدٌ النبيَّ ثلاثَ سنوات ، وعهِد إليه النبيُّ فى كثير من الأعمال الصغيرة ، وأشركه فى بعض الأعمال الكبيرة ومنها غزوةُ مؤتةَ وغزوة حُنَيْن وسريَّة بنى جذيمة ، فما من هذه الأعمال الكبيرة عملٌ واحد لم يتسع فيه المقال للشانئ[3] والحاسِد ولم ينظر إليه الناظر من وجهين متعادلين ، تارة إلى جانب العَذر وتارة إلى جانب المَلام ، ولو أنه رضى الله عنه قضى نحبه فى السنة

(١) هى سرية مؤتة ، وسيأتى تفصيلها بعد قليل .

(٢) الإكليل : شبه عصابة تزين بالجواهر ، ويسمى التاج إكليلا .

(٣) الشانىء : المبغض الحاقد .

العاشرة للهجرة أو بعد ذلك بقليل لعجب المؤرخون كيف سُمِّىَ « سيفَ اللهِ » وفيم استحق هذا اللقبَ الذى لا يعلوه لقبٌ فى الإسلام ، ولكنَّ النبىَّ وحدَه قد عرف قبل الحاديةَ عشرةَ للهجرة أنه حقيقٌ بذلك اللقب على أوفى مداه ، وسماه به قبل أن يَهْزِم المرتدين ، وقبل أن يهزمَ الفرسَ والرومَ ، وقبل أن يصون للإسلام جزيرة العرب ويضمَّ إليها العراق والشام . . وهى الأعمالُ الجسَامُ التى منْ أجلها يُدْعَى سيفَ الإسلام . .

وإنما هو البصرُ العلوى الذى يَلمح هذه القدرة فى معدِنها حيث ينظر الناس فيرون خالدًا مرتدًّا من غزوة مؤْتة أو مأْخوذًا مع الخيل وهى تُولِّى فى أول المعركة من ميدان حنين ، أو صانعاً فى سرية بنى جذيمةَ ما يبرأُ منه النبى عليه الصلاة والسلام .

ولهذا ينبغى أن توزنَ هذه الأعمالُ بميزانها الصحيح لإقامة خالدٍ نفسه فى مقامه الصحيح ، فهى ولا ريبَ من المعدنِ الذى نجمتْ منه حروبُ الرِّدَّة وفتوحُ العراق والشام .

١ ــ سرية مؤتة :

وأول هذه الأعمال قد اشترك فيه متطوعاً بعد إسلامه بشهرين أو ثلاثة أشهر ، وهو سرية مُؤْتة التى سُيِّرت إلى البلقاء

وكان سبب هذه الغزوة أن النبى عليه السلام أرسل وفدا إلى ذات الطَّلْح بمقربة من الشام ليدعوهم إلى الإسلام ، فقُتِلوا جميعاً وعِدَّتُهم خمسَةَ عشرَ إلا رئيسُهم نجا من القتل وحدَه ، ولعلهم أبقَوْا عليه عمدًا ليخبرَ بما رآه ، على ديدِن المنكِّلين فى إبلاغ مُثُلاتِهم[1] إلى من يهدِّدونه بالتمثيل والتنكيل . .

وأرسل عليه السلامُ الحارثَ بن عُمَيْرٍ الأَزْدِىَّ رسولا إلى هرقل فقتله شُرحْبِيلُ بنُ عمرو الغسَّانى وهو فى الطريق .

فأشفق عليه السلامُ من عُقْبَى[2] السكوت على كلتا الفَعْلتين وهو غير مأمون . . وعلِم أن قبائل الجزيرة العربية نفسهَا قد أذعنتْ للدعوة الجديدة ، ومنها المتربِّصُ للغدر متى قدَر عليه ، والموْهُون الإيمان[3] الذى لا يصبر على الإغراء والاستثارة ، فإذا استضعَف

---

(١) على ديدن : على عادة ، والمثلات (بفتح الميم وضم الثاء) العقوبات .

(٢) عقبى : عاقبة .

(٣) الموهون الإيمان : الضعيف الإيمان .

الغسانيون وجيرانُ الغسانيين شأْنَ النبي وأفْلتوا من جرائرِ[١] فَعْلَةٍ كتلك الفَعلة اللئيمة جرَّأهم ذلك عاجلاً على اقتحام الصحراء للنَّقمة[٢] من المسلمين ، فتهبُّ القبائلُ لنصرتهم فى طريقهم ، وتمِدُّهُم الدولةُ الرومانية بالمال والسلاح تقريراً لهيبتها فى عيون أُولئك البدو الذين جهلوا بأْسها ووهموا[٣] أنهم قادرون عليها ! إذ لا مطمع للدولة الرومانية فى مقاتلة المسلمين وإخضاع الجزيرة بغير هذه الوسيلة ، ولا سبيل إلى تسيير الجنود الرومانيين بنظامهم المعروف ومُعَدَّاتِهم الكثيرة لمُنازَلة المسلمين فى عُقرِ دارِهم من وراء المفاوز والنجود[٤] ، وتسييرُهم بحراً إلى شواطئ الحجاز لا يغنيهم عن الاستعانة بأُناس من العرب وأهلِ البادية ، وهمْ أَوْلَى أن يستعينوا على هذا المطلب بأَتباعهم الأَقدمين فى تخوم الشام .

لم يجدْ عليه السلامُ مَناصاً من الثأْر لأَصحابه المقتولين . وجرَّد لتأْديب المعتدين جيشاً صغيرًا لا تتجاوز عدَّتُهُ ثلاثَة آلاف . وكان فى ذلك الجيشِ خالدُ بن الوليد ونُخْبة من أَقدم الصحابة

---

(١) جرائر : جمع جريرة وهى الذنب .

(٢) النقمة : (بفتح النون وقد تكسر) الانتقام .

(٣) وهموا : ظنوا .

(٤) المفاوز : جمع مفازة وهى الصحراء المهلكة ، والنجود : جمع نجد وهو ما ارتفع من الأرض وصلب .

عهدًا بالإسلام ، فلم يتولَّ خالد قيادتَه لأنه كان على الأرجح أحدثَهم عهدًا بالدخول فيه ، وتولاها زيدُ بن حارثة « فإن أُصيب فالرئيسُ جعفرُ بن أبي طالب ، فإن أُصيب فعبدُ الله بن رَوَاحة ، فإن أصيب فليرتضِ المسلمون بينهم رجلا فليجعلوه عليهم » . .

وأمرهم عليه الصلاة والسلامُ أن يذهبوا إلى حيث قُتِل الرسولُ فيدْعوا القوم إلى الإسلام ، فإن أجابوا وإلا فالقتال[1] ، وأوصاهم : « ألا تغدِروا ولا تَغُلُّوا [2] ولا تقتُلوا وليدًا ولا امرأةً ولا كبيراً ولا فانيا[3] ولا معتزِلا بصَوْمَعة ، ولا تقرَبوا نخلاً ولا تقطعوا شجرًا ولا تهدِموا بناءً » .

ولا شك أن هذا الجيشَ إنما كان بالوصف العصريِّ « حملة تأْديبية وبَعثةَ استطلاعٍ » يُقاد على هذا الاعتبار ومن أجل هذه الغاية ، ولا يراد به بداهة أن يحطِّمَ قوةَ الدولة الرومانية أو يفتحَ البلاد التي كانت يومئذ في يديها . .

فمضى لهذه الوجهة حتى نزل « معان »[4] وأقام بها ليلتين ، وسمع المسلمون هناك أن هرقل قد عسكر بمآب[5] في مائة ألف من الروم

(١) أي (فإن أجابوا فبها ، وإن لم يجيبوا فالقتال) .
(٢) لا تغلوا : لا تخونوا في المغانم .
(٣) الفاني : الشيخ الكبير الهرم .
(٤) مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز .
(٥) مدينة في طرف الشام من نواحي البلقاء .

ومائة ألف من قبائل لَخْم وجُذامَ والقَيْن وبهراء وبَلِيَ على أهبة اللقاء .

وقد يقع فى الخاطر أن الروم علموا بمسير جيش المسلمين فأعدوا هذه الجحافل الجرارة ثم سيَّروها إلى تخوم الدولة فى مدى الأيام التى مضت من خروج جيش المسلمين إلى بلوغهم أرضَ معان ، وهو خاطرٌ بعيدٌ جِدَّ البعد لما هو معلوم من صعوبة جمع الجيوش وتسييرها فى مثل هذه السرعة ، ولما يبدو من ضخامة هذه الجحافل بالقياس إلى القوة الإسلامية التى مهَّدوا للقائها ، ولم يكنْ ليفوتَهم أن يعلموا بحقيقتها لو أنهم تلقَّوْا الخبر بخروجها ممن رآها . .

والأرجحُ أن هرقل إنما كان فى جموعه هنالك فى زيارة الشكر التى نذر لله أن يؤديها إذا هو ظفِر بالفرس ، ورد منهم صليب الكنيسة الكبرى الذى حملوه معهم يوم فتحوا بيت المقدس ، وربما كان هرقلُ قد بارح بيت المقدس فى ذلك الحين وتخلَّصت جيوشُ ركابه لأداء هذه الفريضة معه ، أو للقيام بمراسم الحفاوة فى تلك الزيارة التاريخية .

ورأى المسلمون أن مددَ الروم حاضرٌ على مقربة منهم ، وأن الحرب بين عسكرين على هذا التفاوت البعيد عملٌ غيرُ مُجْد ، ولم يكن منظوراً ولا مقصودًا عند مسير الجيش من المدينة ، فرجع

بعضهم وتمهل الأكثرون منهم ليستأذنوا النبيَّ فيما يصنعون ، وغلبتْ حماسةُ الشاعر وحميَّةُ الشهيد على عبد الله بن رواحةَ فانتهز[1] المترددين والمثبِّطين وقال لهم : « يا قومُ ! واللهِ إن التى تكرَهون لَلَّتى خرجْتُم تطلبون : الشهادةُ . وما نقاتلُ الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا اللهُ به ، فانطلِقوا فإنما هى إحدى الحسنين : إما ظهورٌ[2] وإما شهادة ! » . .

فاستمعوا إليه ولم يشاءوا بأية حالٍ أن يرجعوا قبل الانتهاء إلى مقصِدهم الذى خرجوا من أجله وهو إبلاغ الدعوة إلى قاتلى الرسولِ النبوىِّ وإبراءُ الذمة إليهم قبل القصاص ، إن وجب قصاص.

فتقدموا من معان إلى مؤتة على مسيرة نحو ليلتين ، وفيها حصنٌ للغسانيين يُقيم به أميرٌ فى خدمة الرومان .

واحتمى الأميرُ الغسانى منهم بحصنه ثلاثةَ أيام لعله كان ينتظر فيها مددًا أو أمرًا من رؤسائه ، ثم التقى الفريقان على مزرعة فى جوار البلدة ، فاستماتت منْ بقى من جيش المسلمين ، وحاربوا على ما يظهرُ وهم مفاجأُون ، لأننا لم نسمع فى أخبار الوقعة بتوجيه

---

(١) انتهزهم : زجرهم .

(٢) الظهور : الانتصار ، والشهادة : الاستشهاد .

الدعوة أو الإجابة عليها . ولأن قائدًا منهم أعْجِل[١] عن طعامه ولم يذق القوت ساعات ، فلما فوجئوا بالقتال لم تَدعْ لهم المفاجأة من خطةٍ غيرِ خطة الصمود للخطر والثبات فى وجهه مخافةَ المصاب الأكبر فى هذه الحالة وهو مصابٌ الذعر والدهشة والملاحقة بلا هوادة .

وكأنما استحى القادةُ الثلاثة أن يرشّحوا للموت ويرجعوا دونَه ابتغاء النجاة . فقاتل زيدُ بنُ حارثةَ حتى قُتل . وأحاط القومُ بجعفر بن أبى طالب وهو يحمل اللواء ويُثير من حوله نَخْوة المسلمين ، فأنحَوْا[٢] عليه بالضرب الدِّرَاكِ[٣] حتى قُطعت يمينُه ثم قُطِعت شِماله ، ثم ضَمّ اللواءَ إلى عضُديه ولبث يناضل عنه إلى أن مات .

ودُعِى ابنُ رواحةَ إلى الرئاسة فجاءه ابنُ عم له بعِرْق من لحم وقال له : شُدَّ بهذا صُلْبَك فإنك قد لقيتَ فى أيامك هذه ما لقيت ، فأخذه من يده فانتهش منه نهْشةً ،[٤] ثم سمع الحَطْمة[٥] فى ناحية المعترك فألقاه من يده وجرد سيفَه وهو يُنشد :

---

(١) أعجل عن طعامه : (بالبناء للمجهول) لم يتسع له الوقت لتناول الطعام .
(٢) أنحى عليه : أقبل عليه .
(٣) الضرب الدراك : المتلاحق المتواصل .
(٤) فى رواية (انتهس نهسة) بالسين ، أى أخذ منه بفمه يسيراً .
(٥) الحطمة : زحام الناس وتدافعهم .

يا نفسُ إلاّ تُقتَلِي تمـوتى هذا حِمامُ الموت قد صَليتِ[١]
وما تمنَّيْتِ فقد أُعْطِيتِ إن تفعلى فعلَهمـا هُديتِ

فطفِق يصول بين الصفوف ويهدِر بالشعر[٢] حتى قتل والمعركة فى أشُدها . .

فما هى إلا لحظة حتى دبّر المسلمون أمر الرئاسة بوحى البديهة ونور العقيدة وهداية الفِداء التى تَهْدى إلى المصلحة الكبرى وتُغفل كل مصلحة دونها . وإذا باللواء يأخذه فى تلك اللحظة ثابتُ بن أقرمَ من بنى العَجْلان ، وينادى فى أصحابه : «يا معشرَ المسلمين اصطلحُوا على رجل منكم»[٣] . وقالوا : «أنت» قال : «لا . ما أنا بفاعل» . فاتفقت الكلمة على خالد بن الوليد فإذا هو يتولى القيادةَ فى حينها ، ويصنعُ لساعتِه خير ما يُصْنع فى ذلك الحين .

وخيرُ ما يصنع فى ذلك الحين هو الارتدادُ المأمونُ . .

وهو أصعبُ من النصر فى بعض المآزق . لأن النصر ميسورٌ مع اجتماع العُدة له واحتمال الشِدة فيه . ولكنّ الارتداد المأمون غيرُ ميسور لكل من يريده وهو فى أضعف الموقفيْن . . إلا أن تكونَ

---

(١) صليت : من (صلى النار) أى احترق .

(٢) يهدر بالشعر : يردده مجلجلا .

(٣) اصطلحوا على رجل : اتفقوا على رجل ترضونه .

له خِبرةٌ بالقيادةِ تكافىء الرُجحانَ فى قوة العدو الذى يرتد بين يديه .

وأول شىء ينبغى أن يَحتاط به لارتداده هو أن يُوقِع فى رُوع عدوه أنه لا ينوى الارتداد بل ينوى الهجوم أو يقصدُ إلى الحيلة .

فصَمد فى الميدان حتى المساء :

ثم بدَّل مواقفَ الجيش تحت الليل فنقل الميمنةَ إلى الميسرة ، ونقل الميسرة إلى الميمنة ، وجعل الساقةَ فى موضع المقدمة ، والمقدمةَ فى موضع الساقة ، ورصد من خلف الجيش طائفةً يُثيرون الغبار ويكثرون الجَلبَة عند طلوع الصباح . فلما طلع الصباح على الفريقين إذا بكلِّ طائفةٍ من طوائف الغسانيين والروم ترى قُبَالَتَها وجوهاً غيرَ الوجوه وأعلاماً غيرَ الأعلام ، وإذا بالجلبَة مع هذا الاختلاف فى الوجوه والأعلام تُوهم القوم أن مَدداً جديداً أقبل على جيش المسلمين ، وكانوا قد ذاقوا منهم أمرَّ المذاق بغير مدد وهم مفاجَأُون ، فلما ذهب خالد يدافعُ القومَ ويُخاشِى بجيشه[1] لم يتبعوه حَذَرًا من الكمين وتوقُّعاً للإحاطة بهم من ورائهم ، وأبلى خالدٌ فى هذه المدافعةِ والمخاشاةِ بلاءً لم يُبْلِه قطُّ فى غزواته الكبرى على كثرتها .

---

(١) يخاشى : من المخاشاة وهى المحاجزة . وفى رواية أخرى (يحاشى) أى ينحاز .

فاندقت فى يده تسعةُ سيوف ولم تصبر معه إلا صفيحة يمانية[١] ، وكان هذا التراجعُ المحمِيُّ بشجاعةِ المستميت غِطاءً صالحاً للجيش الصغير فى مواجهة الجيش الكبير . فقفَلَ إلى المدينة بسلام ، وعُرِف خالد منذ ذلك اليوم بلقبه الذى أضفاه عليه النبيُّ وهو سيفُ الله ، وعاد الناس يقولون مع النبى إنهم الكُرَّار بإذن الله وليسوا بالفُرَّار[٢] .

وقد سمعنا فى عصورنا هذه بالألقاب الكبار تُضْفَى على القادة لأنهم نجحوا فى خُطَّةِ ارتدادٍ لا محيصَ منها . فتلك هى السُّنّة النبوية تسبقُ النظمَ العصرية إلى تقدير القائد البارع بقيمة النجاح فى ارتداده ، كما تقدره بقيمة النجاح فى تقدمه وانتصاره . ولو أن خالداً مَلكتْه فِطرةُ المجازفة ولم تملكُه فطرة القيادة البصيرة لساءت العُقْبى أيَّما سوء ، وتعرضتْ الدعوةُ الإسلامية لمِحنة لا نعرف مداها الآن . ولربما تعرضت لهذه المحنة من جانب الجزيرة العربية قبل أن تتعرضَ لها من جانب الروم والغسانيين . لأن الجيشَ قد خرج من المدينة تأديباً لأُناسٍ متصلِّفين قتلوا رسولا واحداً أو قتلوا وفداً

---

(١) الصفيحة : السيف العريض .

(٢) روى أن الجيش حينما رجع أخذ بعض الناس يحثون عليه التراب ، ويقولون : (يا فرار فى سبيل الله) . فيقول رسول الله : ليسوا بالفرار ، ولكنهم الكرار إن شاء الله .

لا تجاوز عِدَّتُه خمسةَ عشر . فإذا تورط هذا الجيشُ فى الزحف حتى اصطُلم كلُّه[١] ولم يعد منه أحد ، فكيف يكون وقعُ هذا التأديب المعكوس فى نفوس البادية المتحفِّزة أو فى نفوس أهل مكة ولمَّا تُسلَّمْ مفاتيحُها للمسلمين ؟ إنه ليبعثُ السخريةَ والاستهانة من حيث أُريدتْ له الهيبةُ والمَنَعَة ، وإنه ليُثير من الفتن ومساوئ الظنون ما يصعُب استدراكُه فى سنين .

ولكنَّ الجيشَ قد عاد وأبلى فى أعدائه ، وتسامعتْ الجزيرة بعدد الجحافل الهِرَقلية التى حسبتها مُرْصدةً[٢] له ولم تقدر على تمزيقه ولا أصابت منه غير اثنى عشرَ قتيلا منهم القادةُ الثلاثة الذين نُدِبوا للشهادة قبل خروجه ، فالسَّرية إذن قد نهضتْ بأمانتها ، ووقعَ فى نفوس المسلمين من فرط الثقة ببأْسهم أنها كانت قادرة على جهاد أعظمَ من جهادها ، وثباتٍ أطول من ثباتها . وهى مغالاةٌ فى القوة والبأْس خيرٌ من المغالاة فى الضعف والخوَر ، ولا ضرَر منها ما شفعتْها[٣] تلك البصيرة العلوية التى تضع الأُمور فى نصابها ، وتصف النجاح بصفاته ولو بدا للناس فى ثياب الإخفاق . .

---

(١) اصطلم : استؤصل وأبيد .

(٢) مرصدة : معدة ومجهزة .

(٣) ما شفعتها : أى (طالما شفعتها واقترنت بها) .

٢ – بنو خزيمة :

وقد أثنى النبي على خالد فى مُهِمّة لم يندُبْه لها ولم يرشِّحْه لها مرشِّحٌ غيرُ كفاءته واتفاقُ رأيِ المسلمين فيها .

ولكنه لامه وبَرِىء من عمله حين أخطأ فى مهمّةٍ ندبه لها بعد فتح مكة ، وهى السرية التى قَادها إلى بنى جذِيمة ليكشف عن طويّتهم ويدعوهم إلى الإسلام . .

فبعد فتح مكة توجهتْ عنايتُه عليه السلام إلى تطهير البوادى المحيطةِ بها من عبادة الأصنام ، فأرسل السرايا إلى قبائلها لدعوتها والاستيثاقِ من نيّاتها ، ومنها سرية خالد إلى بنى جذيمةَ فى نحو ثلثمائة وخمسين من المهاجرين والأنصار وبنى سُلَيْم . . أرسلهم دُعاةً ولم يأمرهم بقتال . .

وكان بنو جَذِيمة «شرٌّ حَىٍّ فى الجاهلية ، يُسَمَّوْنَ لَعَقَةَ الدمِ ، ومن قتلاهم الفاكهُ بن المغيرة وأخوه عمًّا خالد بن الوليد[1] ، ووالدُ عبد الرحمن بن عوف ، ومالك بنُ الشريد وإخوتُه الثلاثة من بنى سُليم فى موطن واحد » وغيرُ هؤلاء من قبائل شتَّى .

---

(١) أى أنهم كانوا قتلوا فى الجاهلية اثنين من أعمام خالد . والذى فى (الأغانى) أن القتيلين هما بن الفاكه المغيرة عم خالد ، والفاكه بن الوليد بن المغيرة أخو خالد .

فلما أقبل عليهم خالدٌ وعلموا أن بنى سُلَيْم معه لبِسوا السلاح وركبوا للحرب وأبوْا النزول . فسألهم : أمسلمون أنتم ؟ فقيل إن بعضَهم أجابه نعم ! وبعضهم أجابه : صَبَأْنا ! صبأْنا ! أى تركنا عبادة الأَصنام ، ثم سألهم : فما بالُ السلاح عليكم ؟ قالوا : إن بيننا وبين قوم من العرب عداوةً فخِفْنا أن تكونوا هم فأَخذنا السلاح ! فناداهم : ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا : فصاح بهم رجل منهم يقال له جَحْدَم : ويلكم يا بنى جذيمة ! إنه خالد ، والله ما بعد السلاح إلا الإسار ، وما بعد الإسار إلا ضربُ الأَعناق ، والله لا أَضعُ سلاحى أبدًا . فما زالوا به حتى نزع سلاحه فيمن نزع ، وتفرق الآخرون . فأَمر خالدٌ بهم فكُتِفُوا وعرَضَهُمْ على السيف[1] ، فأَطاعه فى قتلهم بنو سليم ومَنْ معَه من الأَعراب ، وأَنكرَ عليه الأَنصارُ والمهاجرون أن يَقتل أحدًا غيرَ مأْمور من النبي عليه السلام بالقتال . ثم انتهى الخبرُ إلى النبى فرفع يديه إلى السماء وقال ثلاثاً : « اللهمَّ إنى أَبرأُ إليكَ مما صَنَع خالدُ بن الوليد » وبعث بعلىٌّ بن أَبي طالب إلى بنى جذيمة فوَدَى[2] دماءهم وما أصيب من أموالهم . . قيل إنه « كان يَدِى حتى مِيلَغَةَ

(١) عرضهم على السيف : قتلهم به .
(٢) ودى دماءهم : دفع لهم الدية ، وقد سبق تفسيرها .

الكلب[١] » ، ويسألهم : أبقىَ دمٌ أو مال لم يُرد لكم ؟ فلما اكتفوا ورضُوا فرَّق بينهم بقيةَ المال « احتياطاً لرسول الله » .

وقد سأل رسولُ الله فتىً من جَذيمة انفلتَ إليه لينبئَه نبأَ خالد مع آله وذويه : هل أنكر عليه أحد ! قال : نعم . قد أنكر عليه رجلٌ أصفرُ رَبْعَةٌ[٢] ورجل طويلٌ أحمرُ ، فاشتدَّت مراجعتُهما . وكان عمر بن الخطاب بمجلس رسول الله فقال « أما الأولُ يا رسول الله فابنى عبدُ الله . وأما الآخرُ فسالِمٌ . . مولَى أبى حُذَيْفة . .

ويُعْزَى إلى خالد أنه استند فى قتالهم إلى قول عبد الله بن حُذَافة : « إن رسول الله قد أمرك أن تقاتلَهم لامتناعهم عن الإسلام »

وقد عمَّ النكيرُ على الحادث بين أجلاَّء الصحابة ، من حضر منهم السرية ومن لم يحضُرْها ، واشتد عبدُ الرحمن بن عوف حتى رمى خالدًا بقتل القوم عمدًا ليدركَ ثأْرَ عمَّيه اللذين قتلهما بنوجذيمة مع عوف أبى عبد الرحمن ورجلٍ من بنى أُمية . وقصة مقتلهم أنهم كانوا قد خرجوا تُجَّارًا إلى اليمن ثم عادوا ومعهم مالُ رجل

---

(١) الميلغة : الإناء الذى يلغ فيه الكلب ، يكون عند أصحاب الغنم وأهل البادية .

(٢) ربعة : لا طويل ولا قصير .

من بنى جَذيمة قضَى نَحبَه هناك يحملونه إلى ورثته وأهله . فاعترضهم جذَمىٌّ فى رَهْط[1] من قبيلته يُدْعَى خالد بن هشام ، وزعم أنه وارثُ المال وأحقّ به من غيره . فمنعوه يُنظِرونه[2] أن يَصِلُوا بالمال إلى أهل الميت . فغضب وقاتلهم بالرهطِ الذى معه فقتلَ عوفاً والفاكه ابن المغيرة ، ثم عمَد عبدُ الرحمن إلى خالد بن هشام هذا فقتله بثأرِ أبيه . وهمَّتْ قريش بغزو بنى جذيمة لولا أن مشى بعضُ العقلاء بينهم بالصلح فتصالحوا على الدّيَة والمال .

ومن الإسراف أن يُظَنَّ بخالد بن الوليد أنه تعمد قتل أناس وهو يعلم أن دمهم حرام ، ويتخذ من مهمة النبي ذريعةً إلى شفاء تِرَة قديمة[3] . فأدنى من ذلك إلى القصد فى فهم الحقيقة أن نبحثَ عن دواعى اللبس ودوافع الطبع التى تدفع خالداً خاصة إلى مثل هذا التصرف ، فإن كانت هذه الدواعى وهذه الدوافعُ قائمةً مفهومةً فهى تفسيرٌ لما حدث وفيها الكفاية ، وإن لم تكن قائمةً ولا مفهومةً فهنالك ينفسحُ مجالُ الظنونِ والفروضِ لمن يشاء . .

وقد كانت دواعى اللَّبْس ودوافع الطبع قائمةً مفهومة فى مقتلةِ

---

(١) جذمى : نسبة إلى جذيمة ، والرهط : الجماعة .
(٢) ينظرونه أن يصلوا : يستمهلونه إلى أن يصلوا .
(٣) الترة : (بكسر التاء وفتح الواو) : الثأر .

بنى جذيمة . فإن البواديَ كلَّها حول مكة كانت تزخَرُ بالشرِّ وتتحفَّزُ للوقيعةِ فى تلك الآونة بعد تسليم مكة . فلم تمضِ أيامٌ على سرية خالد حتى كانت بطونُ هوازنَ وثقيف وجُشَم وغيرها متجمعةً فى العُدَّةِ الكاملة والعديد الوافر لمباغتةِ النبيِّ وجمْعِه ، فإذا ارتاب خالد فى نِيات طائفة من أهل البادية مشهورين بالشَّراسة والغَدْر وهم يلقَوْنه بالسلاح فلَهُ فى ارتيابه وجهٌ لا يخفى ، وإذا أُضيف إلى ذلك تلجُّجُ[1] القوم فى إعلان إسلامهم والإفضاءُ بنياتهم فليس اللبسُ هنا بعازبٍ عن بال المتوجِّس[2] فى أشباه ذلك المقام . .

وقد يغنى الشِّعْر والقَصَصُ فى الكشف عن شعور القوم هنا ما ليس يغنيه التاريخُ وتسلسلُ الرواية ، فمن كلام أحد الوهنيين فى خطاب بنى جذيمة بنِ عامر يَسُوغُ لنا أن نفهمَ أنهم لم يكونوا متفقين على الإسلام والمسالمة ، وذلك إذ يقول :

دعوْنَا إلى الإسلام والحقِّ عامـــرًا
فمـــا ذنبُنا فى عامرٍ إذْ تَولَّتِ[3]

---

(١) تلجج : تردد .

(٢) عازب عن البال : غائب عنه ، والمتوجس هو المتخوف الحذر .

(٣) عامر : يعنى قبيلة عامر ، ولذلك أعاد إليها ضمير المؤنث فقال (إذ تولت) . وسميت كذلك نسبة إلى جذيمة بن عامر بن عبد مناة ، وقوله (تولت) أى أعرضت وخالفت .

وما ذنبُنـــا فى عامـــر لا أبالَهُمْ
لئن سَفِهَتْ أحـــلامُهم ثم ضَلَّتِ[١]

وقال أحد الجذَميين :

فلا قومُنـــا ينهَوْنَ عنا غُوَاتَهم
ولا الداءُ من يوم الغُمَيْصَاءِ ذاهبُ[٢]

وفى قصة رواها محمدُ بنُ إسحاقَ بن يسار – وهو من الثِّقات – شواهدُ على إصرار بنى جَذيمة وعنادِهم إلى ما بعد الإسار والإنذار ، وفَحْوَى هذه القصة كما أثبتها صاحبُ كتاب الأغانى حيث نُقلت ببعض التصرُّف : «أن خالد بن الوليد كان جالساً عند النبى صلى الله عليه وسلم فَسُئل عن غزوته بنى جَذيمة فقال : إن أذِن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم تحدثتُ . فقال : تحدَّثْ . فقال : لقيناهم بالغُمَيْصَاء عند وجهِ الصبح فقاتلناهم حتى كاد وجهُ الشمسِ يغيب ، فمنحنَا اللهُ أكتافَهُم[٣] فتبعْناهم نطلُبهم ،

---

(١) لا أبالهم : كانت العرب تقول (لا أب لك) أو (لا أبا لك) فى موضع الحث والزجر . وقوله (سفهت أحلامهم) أى خفت عقولهم وطاشت .

(٢) الغواة : السفهاء ، جمع (غوى) ، والغميصاء : ماء لبنى جذيمة قرب مكة .

(٣) فمنحنا الله أكتافهم : أى أنهم تركوا الخومة طلباً للنجاة .

فإذا بغلامٍ له ذوائبُ[١] على فرسٍ ذَنُوبٍ[٢] فى أُخريَاتِ القوم ، فبوَّأتُ له الرمحَ[٣] فوضعتُه بين كتفيه ، فقال : لا إله . فقبضتُ عنه الرمحَ . فقال : إلا اللاتُ[٤] أحسنتْ أو أساءتْ . فهمستُه[٥] همسةً أذريتُه[٦] وقيذًا - أى مُشْرِفاً على الموت - ثم أخذتُه أسيرًا فشددتُه وَثاقاً ، ثم كلمتُه فلم يكلمنى واستخبرْته فلم يُخبرْنى ، فلما كان ببعض الطريق رأى نِسوةً من بنى جَذيمة يسوقُ بهن المسلمون . فقال : أيا خالد ! قلت : ما تشاء ؟ قال : هل أنت واقفى على هؤلاء النسوةِ ؟ فأتيتُ على أصحابى ففعلتُ وفيهن جاريةٌ تدعى حُبَيْشَةَ ، فقال لها ناوليني يدَك ، فناولته يدَها فى ثوبها . فقال : أَسْلِمى حُبَيْش ، قبل نفادِ العَيْش ، فقالت : وأنتَ حُيِّيتَ عشراً ، وتِسْعاً وتِرًا ، وثمانياً تَتْرَى[٧]

قال : «وتناشدا الأشعار حتى قُتِل ، وأقبلت الجاريةُ ووضعت

---

(١) ذوائب : جمع ذؤابة وهى شعر مقدمة الرأس .

(٢) الذنوب : الفرس الوافر الذيل .

(٣) بوأت الرمح : هيأته وسددته .

(٤) اللات : صنم كانوا يعبدونه فى الجاهلية .

(٥) همسته أخذته أخذاً شديداً .

(٦) أذريته : القيته على الأرض .

(٧) وتراً : الوتر من العدد (بكسر الواو أو فتحها) هو الفردى . و (تترى) أى متتابعة .

رأسَه فى حِجْرها ، وجعلت ترشُفُه وتبكى . . . » إلى آخر القصة فى الجزء السابع من الأغانى . وهى على ظهور الاختراع فى بعضها لا تخلو من دلالة على موقف بنى جذيمة من سرية خالد .

فإذا صح مع هذا أن خالدًا تلقى من عبد الله بن حُذافةَ السهمىِّ أمرًا بقتال بنى جَذيمة نقلا عن النبى عليه الصلاة والسلام فهو خليقٌ أن يَعْتمد على الفتوى من أمثاله لحداثة إسلامِه وقلة علمه بفقه الدين وأحكامه ، وهى على أية حال روايةٌ لا تُغْفَل كلَّ الإغفال فى صدد البحث عن أخبار هذه السرية . .

والجو كله بعد هذا وذاك — سواءٌ فى البادية أو مكة — هو جوُّ الحرب والريبة ، وجوُّ التربُّصِ والنفور ، فلا عجب أن تختلفَ فيه النوازعُ[1] والآراء ، وأن تُستطارَ[2] فيه دواعى الشر والنقمة ، وأن يتطرق إليه اللَّبْسُ وتتعذر فيه استبانةُ الوجهِ الصُّراح[3].

وعند خالد دوافعُ الطبع إلى جانب دواعى اللبس واختلاطِ الآراء ، وهى الدوافعُ التى قد نَعُدُّ منها حداثةَ السن فى ذلك الحين . ومنها أنه تناول الموقفَ كما يتناولُه القائدُ المطبوع على القتال فى

---

(١) النوازع : الميول .

(٢) تستطار : تستثار .

(٣) الوجه الصراح : الرأى الواضح .

الصحراء ، ويحدث للقائد فى هذا الموقف كثيراً أن يفرِّقَ بين ضربين من التسليم : هما تسليمُ المراوغة والخَتْل[١] وتسليمُ الإذعان والنصيحة ، ولا سيما تسليم العدو المتهم المتردد الذى يحيد عن الصراحة ويفنِّدُ[٢] أُناسٌ منه مقالَ أناس آخرين .

ومن دوافع الطبع عند خالد تلك الصرامةُ التى ينشأُ عليها كلُّ من نشأَ فى مثل بيئته من الجاهلية : وتلك الشدة التى تُثيره إليها أعصابه ويومئ[٣] إليها تفزُّعه فى نومه ، ومشاركةُ إخوتِه فى عوارضها الموروثة على نحو من الأَنحاء ، وهى ولا ريبَ تلك الشدة التى عَنَاها عمرُ بن الخطاب حين قال : « إن فى سيفِ خالدٍ لَرَهَقاً[٤] » . وهو من أعرفِ الناسِ به وأقربِهم إليه ، وهى التى توقَّعها جَحْدم أخو بنى جَذيمة حين صاح بقومه محذِّراً إياهم من إلقاء السلاح : ويلكم يا بنى جَذيمة . إنه خالد ! . . كأَنها خليقةٌ معهودةٌ منه لا تحتاجُ إلى تأْويل بعيد .

ونَدرتْ فى تاريخ الحروب القديمة والحديثة حربٌ تدور على العقيدة الدينية أَو الحميَّة الوطنية لا تُحْصَى عليها فلتةٌ من أَشباه

---

(١) الختل : المداورة فى الحرب ، والخداع .
(٢) يفند مقاله : يخطئه ويكذبه .
(٣) يومئ إليها : يشير إليها ويدل عليها .
(٤) الرهق : الخفة والطغيان .

هذه الفَلَتات ، ولا يقع فيها نذيرُ السيفِ حيث ينبغى أن يقعَ بشيرُ السلام .

ولا يبعدُ أن يكونَ خالد قد ورث عن عمومته جَفْوةً لبنى جَذيمة فجنح به شعورُه إلى سوءِ الظنِّ بهم ، وقلة الطمأنينة إليهم ، من حيث لا يقصدُ التَّرَةَ ولا يتعمَّدُ الانتقام .

فكل هذا أقربُ إلى تعليل بطشتِه بالقوم من اتهامه بحمْل أمانة النبى على دَخَل[1] وسوءِ نية وهو الرجلُ الذى حارب أصدقاء وأقرب الناس إليه على أبواب مكة ، وله نُدْحَةٌ عن حربهم[2] لو تعمَّد اجتنابَها ، أو كان قُصاراه أن يتعللَ باللسان ولا يرجع إلى صدق النية فى إطاعة النبى عليه الصلاة والسلام .

ومهما يلم اللائمون أو يعذِرْ العاذرون فى هذه الزَّلَةِ فمقطعُ القول فيها بين المنصفين أنها خطأٌ وأن الإبقاءَ على خالدٍ بعدَها صواب . لأن صوابَ الإبقاءِ على خدمته بعد غزوة بنى جذيمة قد ظهر أيَّما ظهورٍ فى حروب الرِّدَّة وحروب الفرس والروم .

وذلك مَثَلٌ من تربية النبى عليه الصلاة والسلام لأقذاذِ الرجال

---

(١) الدخل : (بفتح الخاء) الخديعة والمكر .

(٢) وله ندحة عن حربهم : الندحة : السعة ، والمقصود أنه كان يستطيع أن يتجنب حربهم فلا يلومه لائم .

ويتجلى تمامُ هذا المثل بإعطاء الرجال فرصَ المراجعة والإصلاح فى أمر يشبه الأمر الذى أخطأُوا فيه ، وموقفٍ قريبٍ من الموقف الذى عرَّضهم للملامة . وهذا الذى توخَّاه[1] عليه الصلاة والسلام حين أرسل خالدًا دون غيرِه إلى بنى المصطلق - وهم من بنى جَذيمة - ليستخبرَ له خبرَهم ويتبينَ الحقَّ فيما بلغه عن ارتدادهم ، وكان الوليدُ بنُ عُقْبة قد أخبره أنهم ارتدوا عن الإسلام . فندَب عليه الصلاة والسلامُ خالدًا «وأمرَه أن يتثبَّت ولا يَعْجَل . فانطلق حتى أتاهم ليلا فبعث عيونَه فلما جاءوه أخبروه بأنهم متمسِّكون بالإسلام ، وسمعوا أذانَهم وصلاتَهم . فلما أصبحوا أتاهم خالد فرأى ما يعجبه فرجع إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره » .

وهو مثَل يُنبِئُ عن كثير ، وقد ينبِئُ فيما ينبِئُ عنه أن خالدًا لم يتعسَّفْ كلَّ التعسُّفِ فى شكه الأول ببنى جذيمة على اختلاف بيوتهم ؛ لأن الشك فيهم ما زال يتكرر بعد ذلك بشهور ، وما زال يدعو إلى تلقِّى الإشاعة عنهم وإيفاد الوفود إليهم مرتين للتمحيص والاستخبار .

---

(١) توخاه : أراده وقصد إليه .

٣ – غزوة حنين :

ولم تمض أيامٌ معدوداتٌ على مقتَلة بنى جذيمةَ حتى لمس خالد موضعَ الثقةِ من نفس النبي فى حادث من أكبر حوادث الإسلام ، وهو غزوة حنين .

لمس هذه الثقةَ فى غزوة حنينٍ مرتين : مرةً فى إسناد قيادةِ الخيل إليه على طليعة الجيش ، ومرةً فى سؤالِه عنه وعنايتِه به بعد هزيمةِ الخيل مُوَلِّيةً عند اشتباك الجمْعين .

وحقٌّ خالد فى تلك الثقة إنما يستبينُ من عَرْضِ الغزوةِ كلِّها لجلاء الأسباب التى أوقعت الهزيمةَ الأُولى بجيش المسلمين ، ولا يَدَ فيها لخالد من قريب أو بعيد .. بل لعلها تُوحى إلينا أن هزيمةَ خيله يومئذ إنما كانت كصدِّ الأجسام للأجسام ضرورةً مادية لا دخْلَ فيها للعوامل النفسية ، أمام جارفةٍ من الجوارف القوية ، تأخذ ما أمامها من إنسان أو حيوان ومن شجاع أو جبان .

فقد فُتِحتْ مكةُ والأعرابُ من حولها ثائرون مُحْنَقُون ، وعلموا يومئذ أنها الوقعة الفاصلة ، وأنه لا مطمعَ بعدها فى مكافحة النبى إذا تطاولت الأيامُ على قيام دينه فى البلد الحرام ، وموطن الكعبة

والأصنام . فاجتمعت قبائلُ همدانَ من هوازنَ وثقيفٍ وجُشَمَ ، ومشى بعضُهم لبعض يقولون : « إن محمدًا قد فرغ من قتال قومه ولا ناهيةَ له عنا[١] . فلنغزُهُ قبل أن يَغزوَنا » واستنفروا[٢] القبائل فلبَّاهم من أقربائهم عددٌ كبير منهم بنو سعدِ بن بكر الذين تربَّى بينهم النبيُّ وهو رضيع .

وتولى قيادتَهم مالكُ بن عوف النصرى ، وهو فتىً جرىء فى نحو الثلاثين ، يجمعُ إلى غطرسةِ الإمارة وحَمِيَّةِ الفروسية حِدَّةَ الشباب ، ولَدَدَ[٣] الخصومة والعناد . . فساق أموالَهم ونساءهم وأبناءهم ، وأمرهم إذا رأوْا المسلمين « أن يكسروا جفونَ[٤] سيوفِهم ثم يُشدُّوا شَدَّةَ رجل واحد » . فإما فوزٌ وإما فناء . وصُفَّت الخيلُ ثم الرَّجَّالةُ[٥] المقاتِلة ثم الإبل عليها النساءُ ، ثم صُفَّت الغنَم ، ثم صفَّتْ النَّعَم[٦] فى حراسةٍ لئلا تفرَّ والجيشُ مشتغلٌ عنها .

وسأله دُرَيْدُ بنُ الصِّمَّةِ حكيمُ القوم : مالى أسمعُ رُغَاءَ البعيرِ

---

(١) لا ناهية له عنا : ليس هناك ما ينهاه ويصده عن غزونا .

(٢) استنفروا القبائل : حرضوها على القتال .

(٣) اللدد : شدة الخصومة . قال تعالى (وهو ألد الخصام) .

(٤) جفون السيوف : جمع جفن وهو الغمد .

(٥) الرجالة : جمع راجل ، وهو عكس الفارس .

(٦) النعم : واحد الأنعام وهى الإبل .

ونُهَاقَ[١] الحمير وبكاء الصغير ؟ قال : أردتُ أن أجعل خلفَ كلِّ رجل أهلَه ومالَه ليقاتلَ عنهم ، فسخِرَ دريدٌ برأيه وقال له : رُوَيْعِيُّ ضأنٍ والله[٢] ! وهل يردُّ المنهزمَ شيءٌ ؟ إنها - أى الحرب - إن كانت لك لم ينفَعْكَ إلا رجلٌ بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فُضِحتَ فى أهلك ومالك ، فرماه مالكٌ بالخَرَف[٣] ولَجَّ فى عنادِه ، ولح فى بنى هوازن ميلا إلى كلام دُريد فجمح به غضبُه العارم وأقسم : « لتطيعُنِّى يا معشرَ هوازن أو لأتكِئَنَّ على هذا السيف حتى يخرجَ من ظهرى ! »

فهى عزمةُ رجلٍ مستميت لا يبالى ما يصنعُ بنفسه أو بقومه فى سبيل قهر المسلمين . .

ونَمَى الخبرُ إلى النبى فخرج فى ألفين من أهلِ مكةَ حديثِى العهدِ بالإسلام وعشرةِ آلافٍ من أصحابه الذين قدِموا معه من المدينة . وقيل إنهم كانوا جميعاً ثمانية آلاف .

وأعوزَه السلاحُ فاستعار من بعض المشركين دروعاً فأعطوه ثلاثين أو أربعين درعاً - وقيل مائة درع - بما يكفيها من السلاح ،

---

(١) الرغاء : صوت ذوات الخف كالابل ، والنهاق - كالنهيق - صوت الحمير .

(٢) رويعى ضأن : رويعى : تصغير (راعى) يريد أنه لا يخرج فى تفكيره عن تفكير راعى الماشية ، كأنما يرميه بالحمق .

(٣) الخرف : (بفتحتين) فساد العقل من كبر السن .

واستعار من ابن عمِّه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رُمح ، فأعاره إياها وهو يقول : كأنى أنظرُ إلى رماحِك هذه تقصِف ظهر المشركين .

وأخرج خالدا على طليعة الجيش فى مائة فارس من بنى سلَيْم

قال الحارثُ بن مالك : خرجنا مع رسول الله ونحن حديثو عهدٍ بالجاهلية فسرنا معه إلى حنين ، وكانت لكفار قريش ومَنْ سوَاهم من العربِ شجرةٌ عظيمةٌ خضراءُ يقالُ لها ذاتُ أنواط ، يأتونها كلَّ سنة فيعلِّقون أسلحتَهم عليها ، ويذبحون عندها ، ويعكفون عليها يوماً . فرأينا ونحن نسيرُ مع رسول الله سدْرَةً[1] خضراء عظيمة ، فتنادينا من جَنَبات الطريق : يا رسولَ الله ! اجعلْ لنا ذاتَ أنواط كما لهم ذاتُ أنواط . فقال رسولُ الله : الله أكبر . قلتم - والذى نفسى بيده - كما قال قومُ موسى لموسى : (اجعلْ لنا إلَهاً كما لهم آلِهة ! » . .

وكان فى الجيش كثير من أمثال هؤلاء المسلمين المُحْدَثين ، ومعهم فى ساقةِ الجيش جمعٌ من المشركين بين رجال ونساء ينظرون ما يكون ، وكان فيهم أبو سفيان الذى قال حين رأى بوادرَ

(١) السدرة : شجرة النبق .

الهزيمة : لا تنتهى هزيمتُهم دون البحر ! . . وفيهم كَلَدةُ بن الحَنْبَل الذى صرخ شامتاً متعجِّلا : ألاَ قد بَطَل السحرُ اليوم ، وصرخ معه آخرون يقولون : اليومَ ترجعُ العرب إلى دين آبائها . .

وكان الغالبُ على جيش المسلمين فى خروجهم قلةَ الاكتراث بعدوِّهم ، فقال أبو بكر الصديق : لن نُغْلَبَ اليومَ من قِلَّة ! . . ونُسبت هذه الكلمةُ إلى غيره ، ولكنها قيلت على التحقيق لما جاء فى القرآن الكريم : « إذ أعجبتْكُمْ كَثْرتُكُم فلم تُغْنِ عنكم شيئاً » .

وتقدم الجيش حتى حضرت صلاةُ الظهر فجاء رجلٌ فارسٌ فقال : يا رسول الله ! . . إنى انطلقتُ بين أيديكم حتى طَلعتُ جبلا فإذا أنا بهوازن عن بَكرة أبيهم بظُعُنِهم[1] ونَعَمهم وشائِهم اجتمعوا إلى حنين . فتبسم رسول الله وقال : تلك غنيمة . المسلمين غدًا إن شاء الله . ثم سأل : من يحرُسنا الليلةَ ؟ . . قال أنَسُ ابنُ أبى مَرْثَد : « أنا يا رسول الله . فأمره عليه الصلاة والسلام أن يستقبل الشِّعْبَ[2] حتى يكونَ فى أعلاه ، وقال له لا نُغَرَّنَّ[3] من قِبَلِك الليلة . .

---

(١) الظعن : جمع ظعينة وهى الهودج .

(٢) الشعب (بكسر الشين) انفراج بين الجبلين ، وهو أيضاً (الطريق) .

(٣) لا نغرن : لا نؤخذ على غرة .

فلما أصبحوا سأل النبي : هل أحسستم فارسَكم ؟ . . يعنى ذلك الحارس المستطلع . قالوا : يا رسول الله ما أحسسنا . فجعل عليه الصلاة والسلام يصلّى ويلتفتُ إلى الشِّعب ، حتى إذا قضى صلاتَه قال : أبشروا فقد جاءكم فارسُكم ! . . فجعل ينظرُ إلى خلالِ الشجر فى الشِّعب وإذا هو قد جاء حتى وقف وقال : إنى انطلقتُ حتى إذا كنتُ فى أعلى هذا الشِّعب حيث أمرنى رسولُ الله ، فلما أصبحتُ طلعتُ الشِّعبين كليهما ، فنظرتُ فلم أر أحدًا ، فسألَه : هل نزلتَ الليلةَ ؟ قال لا . إلا مصلّياً أو قاضيَ حاجةٍ .

وروى مُسْلمٌ من حديث عِكْرِمَةَ بنِ عمار عن إياسِ بنِ سلمة ابن الأكوع عن أبيه قال : « غزونا مع رسول الله حُنَيناً ، فلما واجَهْنا العدوَّ تقدمتُ فأعلو ثَنِيَّةً[1] فاستقبلَنى رجلٌ من المشركين فأرميه بسهم وتوارَى عنى فما دَرَيْتُ ما صنع ، ثم نظرتُ إلى القوم فإذا هم قد طلَعت من ثَنِيَّةٍ أخرى ، فالتقوا هم وصحابةُ رسول الله ، فولَّى أصحاب رسول الله ، وأرجعُ منهزماً » . .

وحدَّث أبو عبدِ الرحمن القهرى قال : « كنا مع رسول الله فى حنين فسرنا فى يومٍ قائظٍ شديد الحَرِّ »

وروى محمدُ بن إسحق بسَندِهِ : « خرج مالكُ بنُ عوف

(١) الثنية : الطريق فى الجبل .

بمن معه إلى حنين فسبق رسولَ الله إليها فأعدوا وتهيَّئوا فى مضايق الوادى وأحْنَائه[١] وأقبل رسولُ الله وأصحابُه حتى انحطَّ بهم[٢] الوادى فى عَماية الصبح[٣] ، فلما انحطَّ الناسُ ثارتْ فى وجوههم الخيلُ فشدَّتْ عليهم وانكفأ الناسُ[٤] منهزمين لا يُقْبل أحدٌ على أحد » . .

وفى روايات شتى أن كميناً من المشركين فاجأ المسلمين من شُعْبةٍ فى الوادى وقابلهم بنَبْلٍ كأنه الجرادُ المنتشر ، « وكانوا رماةً . . لا يكادُ يسقطُ لهم سَهْمٌ » فأدبرتْ الخيلُ وأدبرَ المقاتِلةُ وراءها لا يلوون على شىء . .

وتلك جملةُ الأخبار عن بدء المعركة جمعناها من مصادِرَ متعددة ، وأثبتنا بعضَها بحروفها ، ويتبين من المعارضة بينها أن الهزيمة انكشفتْ من الهجمة الأولى ، لأن الخيلَ فوجئتْ فى الطليعة بالنبل المنتشرِ من الكمين المستتر ، فولَّتْ منهزمةً فى جَفْلَةٍ[٥] حيوانيةٍ

---

(١) الأحناء : جمع حنو (بكسر الحاء) وهو منعرج الوادى أو جانبه .

(٢) انحط بهم الوادى : انحدر .

(٣) عماية الصبح : ظلامه قبل أن يتبين .

(٤) انكفأ الناس : ارتدوا .

(٥) جفلة : اسم المرة من جفل ، تقول (أجفل القوم) إذا هربوا مسرعين متزعجين .

معروفة فى أشباه هذه المواقف ، وقديماً ذكر الرواةُ عن حرب الإسكندر وأمراء الهند أن جَفْلَةَ الفيلة من الحديد المحْمِيِّ كانت هى سبب الهزيمة التى أصيبت بها الهندُ فانقلبت الفيلةُ وبالاً عليهم ، وقضَتْ وهى مُولِّية على الكثيرين من فرسانهم ومُشاتِهم ، تطأُ بعضَهم وتُوقِع الآخرين وتدفع مَنْ حاول الثباتَ إلى الفِرار . . ولم تمض على حنين بضعُ سنوات حتى لقِيَ الفرسُ من فيلتهم فى حرب المسلمين مثلَ هذا المصرع ، ومثلَ هذه الجَفْلة الحيوانية ، يومَ تعمَّدَها المسلمون بالضرب فى الأعين والخياشيم .

وقد حدث مثلُ هذه مرةً أخرى فى وقعة حنين هذه حين حاول المسلمون أن يكُرُّوا بعد الفِرار « فصار الرجلُ يلوى بعيرَه[1] فلا يقدِرُ على ذلك لكثرة الأعرابِ المنهزمين ، فيأْخذُ درعَه فيقذفُها فى عنقه ، ويأْخذُ سيفَه وتُرْسَه ويقتحمُ عن بعيره ويُخَلِّ سبيلَه ويؤمُّ الصوتَ[2] »

وهكذا بدأت الهزيمة بفرار الخيل ولَحاق المشاةِ بهم واختلاطِ

---

(١) فى سيرة ابن هشام (فيذهب الرجل ليثنى بعيره) أى يحول وجهته ليقوده إلى المعركة .

(٢) يؤم الصوت : أى يهتدى بصوت القتال « حتى ينتهى إلى حيث رسول الله » .

الحابل بالنابلِ[١] بعد ذلك من الفريقين ، وتواتَر القولُ أن الطُّلقاء الحديثين[٢] فى الإسلام أدبروا منهزمين عَمْدًا بعد الهجمة الأُولى ، فأشاعوا الهزيمةَ فيمن معهم من المهاجرين والأنصار .

ولقد أوشك أهلُ مكة أن يستقبلوا الأعراب المتقدِّمين على رضا من بعضِهم لحنينهم إلى الدين القديم ، وعلى كره من بعضهم لأَنَفَتِهِمْ من غلبةِ الأعرابِ على قريشٍ ، لولا أن تغيرَ مجرى القتال ودارت الدائرةُ على المشركين بعد لحظات ، وكان الفضلُ فى ذلك لحَركة جاءت من قِبَلِ المسلمين ، وحركةٍ جاءت من معسكر الأعراب ، وكان مجيئهما فى الموعد المقدور . .

فأما الحركة التى جاءت من قِبلِ المسلمين فهى بروز النبى عليه الصلاة والسلام بشخصه الكريم إلى مقدِّمة الصفوف . فقد ثبت فى ذلك الهولِ الجارفِ ثبوتاً يَجِلُّ عن الوصف ، وأخذَ زِمامَ المعركةِ كلَّها فى يديه ليمضىَ وحدَه فى القتال كيفما تصير الأُمور .

وكان قد شَهِدَ المعركةَ على بغلته دُلْدُلَ أو الشهباءَ . فانحاز إلى اليمين سريعاً ليستطيعَ التقدم بين تلك الصفوفِ المتدفِّقة من

---

(١) مثل يضرب للاضطراب والفوضى ، أى وقع الاضطراب فيما بينهم فلا يعرف الصائد بالحبال من الصائد بالنبال .

(٢) الطلقاء : أهل مكة الذين دخلوا الإسلام حديثاً بعد الفتح ، يشير إلى قول الرسول لهم (اذهبوا فأنتم الطلقاء) أى المعفو عنهم .

مُدبرين ومُقبلين ، والتفتَ إلى اليمين ونادى : يا معشرَ الأنصار ! . . ثم التفت إلى اليسار ونادى كذلك يامعشر الأنصار ! . . فتسامعوا وتجاوبوا وعَطفوا ـ كما وصفهم شاهِدُوا الموقف ـ عطفةَ الإبل على أولادها ، واجتمع معهم حولَ رسولَ الله مئاتٌ فى لمحة عين .

* * *

وتختلف الروايات فى وصف هذه الحركة المَجيدة من بدايتها ، فيقول بعضُها إن الناسَ أدبروا يومئذٍ عن رسول الله حتى بقىَ وحدَه ، ويقولُ بعضُها : بل بقىَ معه نفرٌ قليلٌ منهم أبو بكرٍ وعمرُ وعلىٌّ والعباسُ وابنُه الفضلُ وأبوسفيانَ بنُ الحارثِ وربيعةُ بنُ الحارثِ ومُعتبُ بنُ أبى لهب وعبدُ الله بن مسعود وقليلون لا يتجاوزون الأثنى عشر . وجعل رسولُ الله يقول :

أنا النبىُّ لا كَذِبْ أنا ابنُ عبدِ المطَّلبْ

ثم أمر عمَّه العباسَ أن يصرخ فى الجيش : يا معشرَ الأنصار ! . . يا أهلَ السَّمُرة[1] ! يا أصحابَ سورةِ البقرة ! يا بنى الخَزْرَج ! وكان العباس رضىَ الله عنه جهيرَ الصوتِ يُسْمَعُ صوتُه على مسافاتٍ

(١) السمرة : ضرب من الشجر ، وهى الشجرة التى تمت تحتها بيعة الرضوان ، فكأنه يناديهم : يا من بايعتم رسول الله .

بعيدة . . وقيل إنه كان يقف على سَلْع[١] وينادى غلمانَه بالغابة فيسمعونه وبينه وبينَهم ثمانيةُ أميال . .

فلما جلجلَ صوتُه بهذا النداء إذا بالأنصار والمهاجرين يتجاوَبون : يا لَبَّيْك يا لَبَّيْك ! ويُسرعون إلى ناحيةِ الصوتِ زُرافاتٍ زُرافاتٍ ، حتى تجمَّعَ منهم ثلثمائة أو يزيد فى لَحظات ، ثم شاعت بين الأُلوفِ المؤلفةِ قُدْوةُ الكَرِّ والإقبالِ بعدَ الفَرِّ والإدبار ، فإذا بالجيش بقَضِّه وقضيضِه[٢] يعدو إلى ساحةِ القتال ويُرسل الخيلَ والمطايا ليملكَ كلٌّ منهم زمامَ يديه وقدَميه . وهانت النفوسُ حتى استهدفتْ[٣] النساءُ للموتِ غيرَ مباليات ، ومنهن من لم تكنْ على صِحَّةٍ فى النظر كالعُمَيْصَاء أمِّ أَنَسِ بنِ مالك[٤] ، وكانت وهى حاملٌ تحزِم وَسَطها ببُرْد لها وفى حزامها الخَنجرُ لدفاعِ من يجترئ عليها . . .

وكان خالد بن الوليد قد ثَنَى عِنَانَ فرسه بعد التوائه فى الهجمة الأُولى ، فلم يَزَلْ يقاتلُ حتى سقط مُثْقَلاً بالجِراح لا يقوَى على السير من مؤخِرَةِ رَحْلِه[٥] ، وهناك وجده النبى عليه الصلاة والسلام

(١) سلع : جبل فى المدينة .
(٢) بقضه وقضيضه : جميعه .
(٣) استهدفت : تعرضت .
(٤) فى سيرة ابن هشام (الرميصاء) من قولك (رمصت العين) إذا أخرجت القذى .
(٥) مؤخرة الرحل : الرحل ، ما يوضع على البعير للركوب ، ومؤخرة الرحل الجزء الذى يستند إليه الراكب فى آخره .

حين خرج يتفقد الجرحى بعد المعركة ، فبارك له وواساه .

أما الحركة التى جاءت من قِبَلِ المشركين فأعانت على هزيمتهم فذاك أنهم قد غرَّتهُمْ طلائع النصر فأقبلوا على الغنائم والأسلابِ وشُغِلَ الكثيرون منهم بالتقاطِها واستلابها عن مطاردة المُدْبِرين . فاتفقت الحركتان فى وقت واحد لتحويلِ وجهةِ القتال .

* * *

ويتبين من مقدِّمات المعركة كلِّها ومن بوادرها التى أجملنَاها أن الهزيمةَ فيها بعد الهجمة الأُولى كانت ضرورةً مادية لا مَحِيد عنها[١] ، وأنها ضرورةٌ لم يكن لخالدٍ يَدٌ فيها ولا طاقةٌ باتِّقائها[٢] لأن أسبابَها كلَّها كانت من وراء تدبيرهِ ومشيئتهِ[٣] وهن كثيرةٌ نُجملها ما وَسِعَنا الإجمال .

فمنها أن الروحَ التى غلبتْ على جيش المسلمين فى بداية المعركة كانت روحَ استهانةٍ وقلة اكتراث ، وأن الروح التى غَلبت على روح المشركين يومئذ كانت روحَ استماتةٍ وعنادٍ ، مع تقارب العدد بين الجيشين .

---

(١) لا محيد عنها : لا مفر منها .

(٢) لا طاقة باتقائها : لا قدرة على تحاشيها .

(٣) كانت من وراء تدبيره ، ومشيئته : كانت بعيدة عن تدبيره ومشيئته .

وربَّما رجحتْ كفَّة المشركين فى الدروع والسلاح لما تقدَّم من حاجةِ النبى عليه الصلاة والسلام إلى استعارة بعضِ الدروع والرماح .

و «منها» أن جيش المسلمين كان فيه كثيرٌ من الطُّلَقاء ، قد يبلغون الألفين وقد يزيدون ، وكانوا على دَخَلٍ[1] أو على ضَعْفٍ يبيِّتون النيةَ على خِذلان النبى . فخذلوه وتَبعَهم الناس .

و «منها» أن جيش المشركين سَبَق المسلمين إلى مواقفِهِ فاختار وأحسنَ الاختيار ، وهجم فى الوقت الذى ارتضاه .

و «منها» أن المسلمين كانوا يواجهون الشمسَ عند الصباح واليومُ قائظٌ. لا تقوى فيه العيونُ على مواجهةِ شُعاعِها ، فحِيلَ بينهم وبين التثبُّتِ والإحكام فى مطلع الصباح إلى أن استوت الشمس فى كبدِ السماء .

و «منها» أن استطلاع المسلمين لم يكن على عادته من البراعة والتيقُّن والإسراع . فقد أبطأ الفارسُ المستطلع حتى التمسَه النبىُّ عليه الصلاةُ والسلامُ مرات . ثم جاء ولم يخبرْ بشىء ، ثم ظهر الكمينُ المرهوبُ من حيثُ لا يرونه ، فأُوقع بالخيلِ وهى لا تحسبُ

(١) الدخل : سبق تفسيرها فى ص ١١٢ .

له أىَّ حِسَاب ، وهذا مع مهارة المشركين فى الرمايةِ حتى قيل إنهم لا يسقط لهم سَهْم[1] . .

و « منها » أن بنى سُلَيم أصحابَ الخيل التى تولاَّها خالدٌ كانوا على قرابة من هوازن ، وعزَّ عليهم أن يلاحقَهم المسلمون بعد استدارة المعركة فكانوا يقولون : ارفَعُوا القتلَ عن بنى أُمِّكم ! وكانوا مع هذا ضعَافَ الإسلام ، فسبَقوا إلى الرِّدَّةِ بعد موت النبىِّ عليه الصلاة والسلام ، وما زالوا فى موضعِ الظِنَّيَّة[2] بعد ذلك على عهد الخلفاء .

* * *

فتقديرُ النبى عليه الصلاة والسلامُ لخالد بن الوليد إنما هو التقديرُ الصحيح لأعمال السَرايا والجيوش فى مُؤْتَةَ وبنى جَذيمَة وحُنَيْن ، وكأنما هو تقويمُ الجوهرىِّ الخبير للجوهرِ النفيسِ فى معْدِنِهِ الخفىِّ غيرَ مصنوع ولا مصقول ، وللتاريخ من بعده تقويمُ الجوهر بما يُضْفِى عليه من جمال الصَّوغ والضياء .

ونعود هنا فنقولُ : إن تقديرَ النبى عليه السلام لخالدِ بنَ الوليدِ لم يكن تقدير المجاملةِ لمكانهِ أو لما يُرْجَى من قومِه الأقوياء بنى مخزوم ، فإنه عليه السلامُ لم يجاملْه فى وصفِه الذى طابقتْه

(١) لا يسقط لهم سهم : لا يطيش لهم سهم .
(٢) الظنة : الشك .

حوادثُ الأيام ، ولم يجامله حين قَدَّمَ عليه فى القيادة ثلاثةً من السابقين فى الإسلام وتركَ اختيارهَ بعدهم لاتفاق كلمة المسلمين ، لم يجاملْه حين خاصمَ عبدَ الرحمنِ بنَ عوفٍ فغضب النَّبىُّ عليه السلام وقال له مُعْرِضاً : «يا خالد ! ذَرْ أصحابى . لو كان لك أُحُدٌ ذهباً فأنفقتَه قيراطاً قيراطاً فى سبيلِ الله لم تُدْرِكْ غَدْوَةً أو رَوْحَةً من غَدواتِ أو رَوْحاتِ عبدِ الرحمن » .

إنما هو سيِّدُ السادةِ ومُرَبِّى الرجال والأبطال ، يقوِّمُ الأعمال بقيمتها ، ويُنْزِلُ العظماء فى منازلهم ، ولا يمنعهُ أداءُ المجاملةِ أن يجاملَ بمقدار على حسب السوابق والأقدار .

وقد نوى خالدٌ للنبى أعمالاً أخرى فى سنوات صُحْبَتِه الثلاثِ ، ولكنَّ الأعمالَ التى اختارها هى أكبرُ أعمالِه فى حياته عليه السلام ، وهى أقربُ الأعمال إلى وزنِ كفايتِه وتقويم معدنه وتمييز خُلُقِه : ولكنه أريد لكل عملٍ صغير كما أُريد لكل عملٍ كبير ، وكانت للنبى عليه الصلاةُ والسلام نظرةٌ فى كل مهمَّةٍ مقدورةٍ نَدَبَهُ إليها . .

* * *

فمن مهامِّهِ الصغيرة تسييرُه فى ثلاثينَ فارساً لهدم «العُزَّى»

بعد فتح مكة ببضعة أيام ، وهو الصنمُ الذى كان أبوه يتمسَّحُ به وينحَر له الإبلَ والغنم ، وكان سدنَته من بطون بنى سُلَيْم الذين قاتلوا مع خالد فى مقاوم شتى[١] . وقد كان معبود القبائلِ التى لقيها المسلمون فى يوم حنين ، وأصلُه ثلاثُ شجراتٍ بأرض نخلةَ يزعمُون أن ربَّهم كان يشتو بها لحرٍّ تِهامةَ ويَصيفُ باللات عند الطائف لبَرْدِها . . وظلت مَخُوفَةً إلى ما بعد الإسلام . فيقول الكَلْبى[٢] : «إن اللاتَ والعزَّى ومناةَ لكل منها شيطانةٌ تكلِّمُهم وتراءى[٣] للسَدَنةِ من صنيعِ إبليس وأَمْرِه» وهى التى أرجفَ مَن أرجَف من المشركين أن القرآن الكريم يرتضيها ويساومُهم على عبادتها ويجعلون منه قولَهم : «اللات والعزَّى ومناةَ الثالثةَ الأُخرى» . تلك الغرانيقُ العُلاَ . وإن شفاعَتهن لتُرْتَضَى[٤] .

فهى مهمة مخوفةٌ من وجهتها النفسية وإن سهلتْ من الوجهة الحربية ، فخرج خالد حتى انتهى إليها فهدَمها ، وجاء فى بعض الأقاويل أنه : «لما انتهى إليها جَرَّد سيفَه فخرجت إليه امرأةٌ

---

(١) مقاوم : معارك .

(٢) الكلبى : صاحب كتاب (الأصنام) .

(٣) تراءى : تتراءى وتظهر .

(٤) الآيات الكريمة تنتهى عند كلمة (الأخرى) . وقد زعم المرجفون كذباً أن رسول الله تلا بعدها (تلك الغرانيق . . إلخ) ، وبذلك امتلح آلهتهم . . وهو زعم مكذوب .

سوداءُ عريانةٌ ناشرةٌ شعرها ، فجعل السادنُ يصيح بها :

«أعزّى» إذا لم تقتلى المرءَ خالدًا فبوئى بإثمٍ عاجلٍ أو تَنَصَّرِى

فأخذ خالداً «اقشعرارٌ فى ظهره» وضربها بالسيف فشقّها . ثم لقىَ النبيَّ فقال له : الحمدُ لله الذى أكرمنا بك ، وأنقذنا بك من الهَلكة . لقد كنت أرى أبى يأتى العزّى بخيرِ مالِه من الإبل والغنم فيذبحُها للعزى ، ويقيم عندَها ثلاثاً ثم ينصرفُ إلينا مسرورًا ونظرتُ إلى ما مات عليه أبى ، وإلى ذلك الرأى الذى كان يُعاش فى فضله ، وكيف خُدعَ حتى صار يذبح لما لا يسمعُ ولا يُبْصر ولا يَضُرُّ ولا ينفع» فقال عليه السلام : «إن هذا الأمرَ إلى الله ، فمن يَسَّرَه للهدى تيسَّرَ له ، ومن يَسّرهُ للضلالةِ كان فيها» . .

وكذلك بلغت العِبرةُ إلى خالد قبل أن تبلغَ منه إلى الناس .

* * *

ومن المهامِّ التى نُدب لها فى حياة النبى مهمّةٌ يمتزجُ فيها الشكُّ بالأَملِ ، والرفقُ بالشدة ، والترغيبُ بالترهيب ، لأنها بعثةٌ إلى أُناس غلاَّبين مجتمعى الرأى ، أُولِى عُصْبَة وبأْس وحُنْكَةٍ[1] ، ولهم سمةٌ

(١) أولى عصبة : أصحاب منعة وعدد كثير ، والحنكة : التجربة والخبرة .

يخالفون بها سِمةَ[١] العرب فى معظم أنحاء الجزيرة ، وهم بنو الحارثِ بنِ كعب بِنَجْرانَ .

أرسله إليهم وأمَره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثة أيام ، فإن استجابوا قَبل منهم وإن لم يفعلوا فله أن يقاتلهم ، فخرج إليهم وبعث الركبانَ فيهم يُبصِّرون بالدين الجديد ويبصِّرونهم بفضائله وأحكامه ، فاستجابوا له ودخلوا فيما دُعُوا إليه .

وأقبل وفدٌ من عظمائهم على النبى – بأمره عليه السلام – فقال حين رآهم : مَنْ هؤلاء القومُ الذين كأنهم رجالُ الهند ؟ . . قيل يا رسولَ الله : هؤلاء رجالُ بنى الحارثِ بنِ كعب . ثم سلَّموا ونطقوا بالشهادتين ، فقال لهم عليه السلام : أنتم الذين إذا زُجِرُوا اسْتَقْدَمُوا ؟ [٢] وأعادها ثلاثاً وهم لا يجيبون . فلما أعادها الرابعةَ قال زعيمُهم يزيدُ بن عبدِ المَدَان ، وفيه شَوسٌ . وخُيَلاء[٣] : نعم يا رسول الله ! . . نحن الذين إذا زُجِروا اسْتَقْدموا ، وكررها أربعاً . فقال النبى : لو أن خالدًا لم يكتب لى أنكم أسلمْتم ولم تقاتِلوا لألقيت رءوسَكم تحت أقدامِكم . فانطلق ابنُ عبد المدان

---

(١) السمة : الشارة والصفة والعلامة .

(٢) إذا زجروا استقدموا : إذا زجرهم زاجر انقلبوا شجعاناً ، وفيهم إقدام .

(٣) الشوس والخيلاء : التكبر والعجرفة .

يقول : أما والله ما حمدْنَاكَ ولا حمدْنا خالداً . قال : فَمَنْ حَمِدْتُمْ ؟. قالوا : حمِدنا الله عزَّ وجَلَّ الذى هدانا بك يا رسولَ الله !

قال : صدقتم . ثم سألهم : بِمَ كنتم تغْلِبون مَنْ قاتلكم فى الجاهلية ؟ قالوا متغضِّبين : لم نكن نغلبُ أحدًا . قال : بلى ! كنتم تغلِبون منْ قاتَلكم . فعادوا يقولون : « كنا نغلبُ مَنْ قاتَلنا يا رسول الله أنَّا كنا نجتمع ولا نتفرَّق ، ولا نبدأُ أحدًا بظلم » .

قال : صدقْتُم ، وقفلوا إلى ديارهم فأرسل إليهم عمرو بنَ حزمٍ يفقِّههم فى الدين ويعلمهم السُّنَّةَ ومعالمَ الإسلام ، ويأْخذُ منهم الصدقاتِ .

* * *

وقد شهد خالد مع النبى عليه السلام غزوتين لم يَجْر فيهما لقاءٌ واشتباك ، وهما غزوةُ الطائف وغزوةُ تَبُوك .

وكانت غزوةُ الطائِف تتمَّةً لوقعة حنين ، لاذتْ بها [1] القبائل بعد فِرارها وامتنعتْ وراءَ أسوارِها ، وجمعتْ من الميرة [2] ما يكفيها إلى السنة القابلة ، فأحاط المسلمون بالأسوار فرماهم المشركون بالنَّبل كأنهم أسرابُ الطير ، وقُتلوا وجرحوا وهم متمكِّنون فى أسوارهم ،

(١) لاذت بها : أى بالطائف : أى لجأت إليها .
(٢) الميرة : الطعام .

فبَرز خالد لهم يدعوهم إلى النزال ولا يجيبُه أحد . ثم صاح به عبدُ يَاليلَ عظيمُ ثقيف : «لا ينزل منا أحدٌ ولكن نقيمُ فى حصنِنا فإن فيه من الطعام ما يكفينا سنين ، فإن أقمت حتى يفنى هذا الطعامُ خرجْنا إليك بأسيافِنا جميعاً حتى نموتَ عن آخرِنا » . .

فضربهم المسلمون بالمَنْجنيق ، وتقدم نَفَرٌ من الصحابة تحت دبَّابتينِ من جلود البقر يفتحون ثغرة فى الحصن . فأرسل عليهم المشركون سِككَ الحديد[1] المُحمَاةَ فأحرقت الدبابتين وصَدَّتْهُمْ عن السور .

وأمر عليه الصلاة والسلام بكُرُومِهم ونخيلِهم فَقُطِعتْ وهم يصيحون : دعْها لله والرَّحِم[2] ! فقال عليه السلام : أَدَعُهَا لله والرَّحِم ، واستشار نوفلَ بنَ معاوية الديلى فى أمرهم فأجابه : «يا رسول الله ! ثعلبٌ فى جُحْر . إن أقمتَ أخذتَه ، وإن تركتَه لم يضرُّك » .

وفى الطريق قَسمَ النبيُّ غنائم حنين قِسْمةً لم تُرْضِ أناساً ، فغضب رجلٌ من المنافقين وصاح فى حضرته : هذه قِسْمةٌ ما أُرِيدَ بها وجهُ الله ! فاحمرَّ وجهُه عليه السلامُ غضباً وقال له : ويحك ! ..

(١) السكك : جمع سكة ، وهى حديدة المحراث التى يحرث بها .
(٢) الرحم : القرابة .

منْ يعدلُ إذا لم أعدِل ؟ ووثب خالدٌ وعمرُ يستأذنانه فى ضرب عنقه ، فأبى وقال : لا . . لعله أن يكونَ يُصَلِّى . فقال خالد : وكم من مُصلٍّ يقولُ بلسانه ما ليس فى قلبه ! . . فعاد النبى يقول : إنى لم أُومرْ أن أُنقِّب عن قلوبِ الناس ، ولا أن أشُقَّ عن بطونِهم . .

أما غزوة تَبُوكَ فقد خرج لها النبى عليه السلام إلى حدود الروم سنةَ تسع للهجرة فى أعظم جيش شهِده المسلمون فى حياته . ومن ثَمَّ أمرَ خالدًا أن يذهب إلى دُومةِ الجنْدلِ[1] ليأتيه بالأُكَيْدِرِ أميرها ، لأنه كان فى وسط الطريق بين الحجاز والعراق والشام عيْناً[2] للروم وحرباً للقوافل ، يدين للقسطنطينية بالعقيدة وبالطاعة . ومن خِبرة النبى عليه السلام بالقبائل وأحوالها والأُمراءِ وعاداتهم أنه قال لخالد : ستجده يصيد البقر . . فكان كما قال . .

وقد ذهب خالد إلى الدُّومة فى أربعمائة وعشرين فارساً ، فاقتحم الحصنَ واضطَرَّ من فيه إلى التسليم ومنهم الأَميرُ ، وجاء به إلى المدينة فصالحه النبىُّ على الجِزية وعاهده على الأمان .

وثَمَّ بَعْثَةٌ من غير هذا البابَ نُدِب لها خالد ولم يُنْدَب لمثلها

---

(١) دومة الجندل : حصن بين المدينة والشام ، أقرب إلى الشام .
(٢) العين : الجاسوس .

قَطُّ فى عهد النبى ولا عهود خلفائه ، وتلك بعثته إلى بنى مُراد وزَبيد ومذْحِج باليمن يدعوهم إلى الكتاب ويعلِّمهم شريعته وأحكامَه .

قيل إنه مكث فيهم أشهرًا يدعوهم فلا يجيبونه ، وأنه عليه السلامُ بعث بعده علىَّ بنَ أبى طالب وأمره أن يُقفِل خالدًا ومن معه فإن أراد أحدٌ أن يعقبَ معه تَركه[1]

ولا غرابةَ عندنا فى هذا الذى حدث — إن كان قد حدث على الوجه الذى ذكره الرّواة — فإن خالدًا لم يسمعْ من القرآنِ ولا من فِقه الدين كما سمع الصحابةُ ممن عاشروا النبىَّ سنين بعد سنين ، وإنما هى سنواتٌ قلائلُ لم يفرغْ فيها إلا بضعةَ أشهرٍ من الغزوات والبعوث . وقد أَمَّ الناسَ بالحيرة — فى خلافة الصِدِّيق — فقرأ من سُورٍ شتَّى ، ثم سلَّم والتفت إلى الناس معتذرًا يقول : شَغَلَنى الجهادُ عن كثير من قراءةِ القرآن ! .

* * *

ويجوز أن النبى عليه السلام أرسله فى هذه البعثة ليُدرِّبهُ على الدعوة ، وليَفْرَغَ بعضَ وقتِه للمدارسة والمذاكرة بهداية من معه من فقهاء الصحابة ، ويجوز أنه عليه السلام تعمد أن يرصُدَه للبطل

(١) أى : إذا أراد أحد الذين كانوا مع خالد أن يبقى مع على فليفعل .

المشهور عمرو بن معْدِ يكَرِب – فارس زبيد – نِدًّا له يكُفُّ من غَرْبِه[١] ويُلزِمُه التدبُّرَ فى عاقبة نَكثِه وانتقاضِه[٢] .

وفى تواريخ البَعثة اضطرابٌ قد يشكِّكُ القارئَ فى بعض وقائعها وأغراضها ، فيجوز أيضاً أن البعثةَ وُفِّقَتْ بعضَ التوفيق أو كلَّ التوفيق ، وأن الرواةَ قد فاتهم فى هذا الصدد شىء كثير أو قليل من التحقيق .

لكنها كائناً ما كان مصيرُها ومصيرُ عَشْرٍ من أمثالها – لو نُدِب إلى عشر من أمثالها – لتَسْقُطنَّ من سيرةِ خالد ويبْقَينَّ له ما هو حسْبُهُ[٣] من البطولَة وصِدق البَلاء . وليكونَنَّ بها أو بغيرها خطيباً يبينُ من مِنْبرِ التاريخ ، وإن لم يحمله قطُّ مِنبرُ التعليم .

---

(١) يكف من غربه : الغرب : الحدة والتمادى فى الأمر ، يعنى أن خالداً كان كفئاً لعمرو ، ويستطيع أن يحد من تماديه ومخالفته .

(٢) انتقاضه : خروجه على الأمر ومخالفته .

(٣) ما هو حسبه : ما يكفيه .